

– " هل يشتغل الإنسان خوفا من الموت؟ " – هل الشغل هو عملية إنتاج قيم مادية؟ – هل يشتغل الإنسان من أجل أن يعيش فقط؟

من أبرز الظواهر المميزة للإنسان الكائن العاقل، الشغل الذي هو مجموع الجهد الفكري والعقلي الهادف إلى إحداث أثر نافع. غير أن القراءة الفلسفية لموضوع العمل قد أفرزت أكثر من أطروحة، ولعل التساؤل عن قيم "أبعاد" العمل يعد من التساؤلات الهامة التي احتلت منزلة كبيرة وأثارت جدلا واسعا بين جبهة الفلاسفة والمفكرين، فهناك من فسّر ظاهرة العمل تفسيرا ماديا صرفا "خالصا"، الحاجيات البيولوجية وبالتالي تأمين وحفظ البقاء، و لكن هناك من يرفض هذا الطرح و ينفي أن يرد العمل إلى البعد المادي فقط و بالتالي يعلن عن وجود أبعاد أخرى للعمل. الموقف الأول: يعتقد عدد من الفلاسفة و المفكرين أمثال "ميشال فوكو"، بيولوجية، بمعنى أن الإنسان قد اشتغل من أجل أن يحقق مختلف مطالبه المادية (الاقتصادية) (أكل، لباس، مأوى،...، فلولاً الحاجيات المعيشية والاقتصادية لما اهتم الفرد و لا اهتمت الجماعة بالعمل. ومن مسلمات هذا الطرح أن الطبيعة ولأسباب عديدة "حرائق، جفاف، ندرة الثمار..." لم تعد قادرة على توفير كل ما يحتاج إليه الإنسان وفي الوقت الذي يكون هو في أمس الحاجة إلى ذلك، الأمر الذي أدى بالإنسان إلى أن يفكر ويبدع طرقا عملية حتى يرغم الطبيعة على الاستجابة لمطالبه "إن الحاجة أم الاختراع". ولما كانت الطبيعة إذن عاجزة عن إشباع حاجات الإنسان لذلك فهو يشتغل. أي أن إرضاء الحاجات الحيوية هو الذي حرك العمل لدى الإنسان. فتكون الحاجة إلى الغذاء والدفاع عن النفس هي التي دفعت بالإنسان إلى البحث عن الأدوات الضرورية لاقتناء الأغذية ودفع جميع الأخطار التي تهدد حياته. فالعمل إذن حسب أنصار هذا الموقف أساسه مادي، فالذي حرك و يحرك الإنسان للقيام بمختلف الأعمال هو تأمين الحاجيات المادية، وبالتالي حفظ البقاء و الكيونة. و من الحجج التي اعتمد عليها أنصار هذا الموقف: أن الإنسان منذ أن وجد لم يجد كل شيء جاهز في الطبيعة الأمر الذي دفعه إلى مزاوله مختلف الأعمال. ففي القديم كانت هذه الأعمال بسيطة كقطف الثمار، الزراعة، الصيد، ... و مع تطور العلم اكتسحت التقنية ميدان العمل. الإنسان من أجل البقاء". كما أن الإنسان إذا لم يقم بمزاوله مختلف الأعمال كان مصيره الهلاك و الفناء الحتمي، لأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة يقول الفيلسوف المعاصر "ميشال فوكو" في هذا الصدد: "أن البشرية قد اشتغلت تحت تهديد فكرة الموت"، **الإنساني المسلط على المادة هو ما يميز في نظر عالم الاقتصاد الإنسان عن الحيوان فتعلمنا الشغل إنما هو غايتنا في الأرض"، كما أن الإنسان استطاع بفضل قيامه بمختلف الأعمال أن يسخر الظواهر الطبيعية التي تتميز بالقساوة و البأس لصالحه، إذ أنه لو لم يبتكر تقنيا و ينتج صناعيا وزراعيًا كان مصيره الاندثار والموت، فبواسطة العمل إذن استطاع الإنسان أن يسخر الظواهر الطبيعية لصالحه مع الحيلولة دون وقوعها بما يخلق له ضررا. ولكن على الرغم من كل هذه الجهود التي بذلها أنصار النظرية المادية في تأكيدهم على أن الغاية الأساسية للعمل هي تأمين الحاجيات البيولوجية و حفظ البقاء إلا أن ما يؤاخذ على تصورهم هذا أنهم نظروا إلى العمل نظرة ضيقة و من زاوية واحدة، لهذا طفت إلى السطح عدة اعتراضات و انتقادات أهمها: كيف يتم تفسير مختلف الأعمال التي يقوم بها الثري فرغم قدرته تلبية حاجياته المادية نجده يعمل و يروح متشوقه وهذا دليل أكثر من قاطع على أن العمل يسمو عن الغاية المادية، الذي قد يفقد حياته وهو يؤدي عمله. إذن فحصر العمل في الغاية المادية يؤول إلى تصور حياة الإنسان لا تختلف عن حياة الخنازير حسب "أفلاطون" الذي يوافق "شيشرون" في قوله: "لا يمكن لشيء نبيل أن يخرج من دكان أو ورشة" لأن **الحيوان هو الآخر كائن عامل. فلو اقتصر الشغل على تلبية المطالب الحيوية لسмина نشاط الحيوان شغلا. لكن، هل يعبر نشاط الحيوان عن المدلول الصحيح للشغل؟ إن المقارنة البسيطة بين نشاط الحيوان الذي يرتبط بالحاجة البيولوجية المحضنة، والعمل لدى الإنسان تبين بوضوح أن العمل في مدلوله الصحيح يتجاوز حدود الحاجات الحيوية إلى ما هو أسمى وأرقى. فالحيوان يستهلك مواد طبيعية جاهزة ولا يقوم بتحويلها وصناعتها، ينتج ما يستهلكه وذلك بتحويل المواد الطبيعية من شكلها الخام إلى بضاعة جاهزة للاستهلاك، ففي الزراعة يقوم الإنسان بتغيير شكل الأرض بحرثها وزرعها وغرسها. وفي الصناعة، يقوم بتحويل المواد الأولية إلى مصنوعات وبضائع. الموقف الثاني: لهذا يرى عدد آخر من الفلاسفة و علماء النفس والاجتماع أن للعمل عدة قيم وأبعاد سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو أخلاقية أو دينية. فالعمل يحقق للإنسان عدة مكاسب: فمن الناحية النفسية نجد الإنسان العامل يشعر لا محالة بالراحة النفسية والاطمئنان. يقول الفيلسوف "فولتير" في هذا الصدد: "إذا أردت أن لا تنتحر أوجد لنفسك عملا"، كما أن الأطباء النفسانيين يوجهون مرضاهم إلى الحياة العملية لأن العمل يحقق الرغبة النفسية، ويثبت وجود الذات العاقلة المفكرة الحرة، الجانب الفاضل فيه. فالشخص العامل لا تسول له نفسه التعدي على الغير ونهبهم أو التسول. فالعمل إذن هو تلبية لنداء الواجب على حد تعبير "ايمانويل كانط". فالإنسان يعمل لأن من واجبه أن يعمل وهو ناتج عن أمر قطعي، كما أن العمل ضرورة اجتماعية أو ظاهرة ملازمة للاجتماع البشري على حد تعبير "ابن خلدون" فالفرد لا يعيش منعزلا عن الجماعة ولا يستطيع****

أن يلبي حاجياته إلا في نطاق المجتمع، فبقاء الإنسان مرهون بسد الحاجات الحيوية الضرورية، والفرد وحده - كما يقول ابن خلدون - لا يستطيع سد حاجاته المختلفة دون الاجتماع مع غيره، الاجتماع ضروريا ليتعاون الناس على إنتاج ما يلبي ضروريات العيش، وكان تقسيم الشغل مظهرا لهذا التعاون الذي يجعل المجتمع كالخلية الواحدة يقوم كل واحد بجهد مكمل لجهود الآخرين. ثم إن العمل يعني بالدرجة الأولى أن يعيش الإنسان بعرق جبينه وليس على حساب الآخرين متطفلا على مجهوداتهم. فالإنسان الذي يعمل يفيد بذلك نفسه والآخرين، ولا يستطيع غيره أن يستغني عنه، نظرا للخدمات التي يقدمها للمجتمع. وفي هذا المعنى يقول "ابن خلدون" في مقدمته: "إن الكسب الذي يستفيدة البشر إنما هو قيم أعمالهم، ولو قدر لأحد أن يكون عطالا (بطالا) عن العمل لفقد الكسب بالكلية، وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته، وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه". إن قيمة الإنسان إذن، تقاس بقيمة حاجة كل الناس إليه، فمن لا يعمل، ذلك إنما يظلم المجتمع ويسلب حقوقه، لأنه يستفيد ولا يفيد، ويخدمه الغير بدون مقابل. والإلزام عندما يشتغل وبضرورة التحمل والصبر يدل على الأقل أن الشغل ليس نشاطا ترفيهيا يستهويه الإنسان بل هو أمر جدي وأبعد ما يكون عن العبث. منه يستمد قيمته الإنسانية والاجتماعية. وعليه فالعمل هو مفتاح التطور والازدهار. ومزدهرا وناميا، فالحياة اجتماعية بالضرورة تقتضي تبادل المصالح والأخذ والعطاء وهذا ما يستلزم العمل. الدين الإسلامي الحنيف الذي يعد بلا جدال أول من رفع من قيمة العمل، بعدما كان في القديم وخصوصا عند اليونانيين والرومانيين وفي الديانتين المسيحية واليهودية رمز الشقاء، بمنزلة كبيرة جاعلا من مقامه مقام العبادة. مصداقا لقوله تعالى: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون". وقوله (ص. أحدكم عملا أن يتقنه". وقول عمر بن الخطاب (رض. فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة". لا شك أن الإنسان يكشف ذاته من خلال الشغل الذي ينجزه من جهة، وأن الشغل يتجاوز حدود الحاجات المادية من جهة أخرى. لكن لا مناص من الإقرار بأن الشغل في الأصل كان مرتبطا بحاجات الإنسان الحيوية، فالإنسان الأول اشتغل حتى يحافظ على حياته، ويحقق قدرا من التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه. فلا يمكن إهمال البعد البيولوجي للشغل، فما زال دوره قائما نظرا لأهميته. وما زال الإنسان اليوم يفضل العمل يسد حاجته الضرورية كالأكل واللباس والسكن. كما أن العمل ليس في مطلق الأحوال نشاطا اجتماعيا، فحقيقته أنه نشاط إرادي لا علاقة له بالجماعة، للأجنبي الوضع لقول "أرسطو": "العمل اليدوي شيء مخزي لا يكون إلا من نصيب العبيد"، الوسطى جعلته نوعا من العذاب يعانیه المذنب في هذه الحياة تكفيرا عن الخطيئة الأولى، كما أن التفسير الأخلاقي يجعل العمل ذو بعد جاف مثالي ونظري لأن الإنسان جسم وفي حاجة لتلبية رغباته. إذن ونتيجة للانتقادات السابقة والموجهة لكلا الاتجاهين يمكننا القول بأن العمل باعتباره نشاطا إنسانيا لا يقتصر على مجرد توفير الحاجات الحيوية بصورة آلية بقدر ما هو مجهود واع يختلف عن مجهود الكائنات الأخرى، فالإنسان كائن مفكر يعي تضاده مع الطبيعة، وهو لا يأخذ من الطبيعة فحسب بوصفها المشبع لحاجاته، بل أنه واع عندما يبذل الجهد بما يتركه ذلك من تأثير فيه، إذ هو يتصور مقدا الغاية التي ينتهي إليها شغله، والكيفية التي يبذل بها هذا الشغل والوسيلة المناسبة، فالإنسان بهذا المعنى يغير قوى الطبيعة ويخضعها لإرادته، فيضفي عليها طابعا إنسانيا خالصا وفي نفس الوقت تتغير طبيعة الإنسان الذي يشتغل. تلبية للضرورة البيولوجية وحفظ للبقاء. فالذي حرك ويحرك الإنسان هو إشباع الحاجة البيولوجية فالعمل أساسه مادي ومرتبطة بالجوانب الجسمية والقيم النفعية، دون إلغاء أو تهميش للجوانب النفسية أو الأخلاقية أو الدينية يقول "فولتير" في هذا الصدد: "إن العمل يبعد عنا القلق والحاجة والرذيلة". إذن فالدافع الأول للعمل هو تحقيق المطالب الاقتصادية (المادية) دون تجاهل للقيم والأبعاد الأخرى باعتبار الشغل واجبا وتلبية لنداء الضمير والمجتمع. ختاماً ومما سبق نستنتج أن العمل ليس ظاهرة مادية بيولوجية صرفة. فالأساس المادي لا يعد حلا متكاملًا، لأن الإنسان يسمو بالعمل إلى تلبية نداء الواجب في حد ذاته ونداء الوجود ككل. فمن العمل من قتل صاحبه ليخلده عمله. فالشغل إذن لا يعتبر عنوانا لما هو مادي بيولوجي فقط، بل هو عنوان للحرية وسيطرة الإنسان على الطبيعة ومن ثمة تأسيس النهضة وبناء الحضارة الإنسانية. وبهذا المعنى يعتبر العمل مجهودا عضليا وفكريا يقوم به الإنسان بوعي منه بالغايات والوسائل، في إطار الإلزام الأخلاقي وذلك من أجل تحقيق أمر نافع للفرد والجماعة، يسد به الإنسان حاجاته المادية والحوية، ويحقق وجوده في وسط المجتمع الإنساني بكل قيمه الاجتماعية والأخلاقية والجمالية.